الشأم كما تلقى ملك مصر على يد قائده جعفر بن فلاح ، ودعا له بنو حمدان فى حلب ، فكانت مملكته الشاسعة تمتد من أواسط المغرب الى شمال الشأم ؛ ولكن ثورة القرامطة كانت تهدد ملكه الجديد فى مصر والشأم ، وكان القرامطة قد زحفوا على مصر بالفعل فى أوائل سنة ٣٦١ ، ونشبت بينهم وبين جيوش المعز بقيادة جوهر معارك هائلة على مقربة من الخندق (بجوار القاهرة) انتهت بهزيمتهم ، ولكنهم ارتدوا عندئذ نحو الشأم فافتتحوها من يد ابن فلاح نائب المعز ، ثم زحفوا على مصر كرة أخرى ، فلقيتهم جيوش المعز على مقربة من بلبيس ، وهزمتهم هزيمة ساحقة (أواخر سنة ٣٦٣ هـ) . وفى العام التالى خاضت الجيوش الفاطمية فى الشام معارك شديدة ضد أفتكين المتغلب على دمشق وحلفائه البيزنطيين ؛ وفى الوقت نفسه غلبت الدعوة الفاطمية على الحجاز ودعى للخليفة الفاطمى على منابرها

وتوفى المعز فى ١٤ ربيع الثانى سنة ٣٦٥ هـ (ديسمبر سنة ٩٧٥ م) ، فخلفه ولده العزيز بالله (أبو منصور نزار) ، ولبث فى الخلافة زهاء إحدى وعشرين سنة . وفى أول عهده زحف القرامطة وحليفهم أفتكين على مصر ، فلقيهم العزيز فى فلسطين وهزمهم بعد حرب شديدة وأسر أفتكين (٣٦٨ هـ) وفى أيامه استردت دمشق ، وافتتحت الجيوش الفاطمية حمص وحماه وحلب وخاضت مع البيزنطيين معارك عديدة كان النصر حليفها فيها ؛ ودعى للعزيز فى الموصل واليمن ، واتسع بذلك نطاق الدعوة الفاطمية اتساعاً عظيماً . ثم توفى العزيز فى ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦ هـ (سبتمبر سنة ٩٩٦ م) فى بلبيس حيث كان يعتزم السير بعساكره الى الشأم[1] ؛ فخلفه يوم وفاته ولده وولى عهده أبو على منصور ، ولقب بالحاكم بأمر الله ، وكان العزيز قد استدعاه اليه فى مرض موته ؛ وفى اليوم التالى سار الحاكم الى القاهرة ومعه جثة أبيه ، فدخلها فى موكب فخم مؤس معاً

للبحث بقية

محمد عبد الله عنان
المحامى

النقل ممنوع

(١) هذه هى الرواية الراجحة وبها يقول ابن الأثير (ج ٩ ص ٤٠) وابن خلكان (الوفيات ج ٢ ص ٢٠١) . وهناك رواية أخرى هى أن العزيز توفى بالقاهرة قبل خروجه الى الشأم (راجع النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٢١)

كيف نبعث الأدب
وكيف نتروّاه

للأستاذ عبد العزيز البشرى

تتمة

اين ادبنا الصريح ؟:

لقد تعرف أن الأدبَ الحقَّ لكلِّ أمةٍ هو الذى يُشاكل حضارتها ، ويكافئ ثقافتها ، ويواتيها فى جميع أسبابها ، ويترجم فى صدقٍ ويسرٍ عن عواطفها ، وينفض ما يعتلج فى الصدور من ألوان الشعور والأحساس . ولقد تعرف أن الأمم كما تختلف فى ألوانها وفى ألسنتها وفى أخلاقها وعاداتها وغير أولئك ، فانها تختلف كذلك فى شعورها وفى أذواقها ومنازع عواطفها . ومهما تختلف فى أفراد الأمة الواحدة هذه العواطف بالقوة والضعف ، والرقة والجفاء ، وغير ذلك من وجوه الاختلاف ، فانها ترجع إلى أصل واحد ، وتندرج تحت جنس واحد ، على تعبير أصحاب المنطق ، وذلك لأنها أثر من آثار الأرث ، والبيئة ، والعادة ، والتاريخ ، وما يتردّد عليه النظر من صور الطبيعة ، وغير ذلك . كما أن لنوع الثقافة ومبلغ حظ الأمة منها أثره البعيد أو القريب فى هذا الباب

ومهما يكن من شيء فان لون العواطف الشائع فى كل أمة ليس بالشيء الذى يستعار استعارةً ، ولا بالذى تتناقله الأمم كما تتناقل العلوم وفنون الصناعات مثلاً . وكيف له بهذا وقد رأيت أن أبلغ عناصره مما لا يدرك بالكسب ولا بالاختيار ، إن هو إلاّ حكم الطبيعة وما من حكم الطبيعة مناص !

وأحسب أننا ، بعد التسليم بهذا ، فى غير حاجة إلى أن نبعث الأدلة على أن ما يترجم عن عواطف قوم ويصور من حسهم الباطن قد لا يؤدى هذا لغيرهم ، وأن ما يستقيم من البيان لأذواق خلق من الناس لقد ينشز على أذواق معشرٍ آخرين . على أنه قد تشترك العاطفة والذوق كلاهما فى معنى من المعانى ، وحينئذ يصدق البيان

وعلى هذا فانه مهما نسرف فى مطالعة أدب الغرب والتروى منه ، ومهما نجهد فى محاكاته وتقليده ، فانه لن يكوّن لنا أدباً فى يوم من الأيام ، اللهم إلا أن تنقلب أوضاع الطبيعة ، فان الأمم لا تطبع على غرار الآداب ، بل إن الآداب لهى التى تطبع على غرار الأمم !

لقد نكون فى حاجة ولقد تكون هذه الحاجة شديدة جداً إلى مطالعة آداب الغرب وإطالة النظر فيها ، واستظهار الكثير من روائعها ، ونقل مايتهيأ نقله إلينا منها فى لسان العرب ، ولكن ليس معنى هذا أن نتخذها آداباً لنا . فذلك ، كما علمت ، عبث لا يغنى ولا يفيد

* * *

والآن نلتمس أدبنا باعتبارنا عرباً أو مستعربين نعيش فى مصر ، مأخوذين بثقافتها القائمة ، موصولين بتاريخها القديم . إننا نلتمس هذا الأدب الذى يوحى به إلينا تاريخنا العربىّ من ناحية ، وتاريخنا المصرىّ من الناحية الأخرى . هذا الأدب الذى تُلهمنا إياه أخلاقنا وعاداتنا وثقافتنا ، ويسوّيه لنفوسنا العيشُ فى وادى النيل . إننا نلتمس هذا الأدبَ الذى يَفيض بما تجيش به عواطفنا ، ويصدق فى الترجمة عما يَعتلج فى نفوسنا ، ويصوّر دخائل حسّنا أكمل تصوير ، ويعبرّ عنها أدق تعبير . وإن شئنا الكلمة الجامعة قلنا إننا نلتمس الأدبَ القوميّ فلا نُصيب أثرَه إلا قليلاً فيما يخرج لنا من آثار الأدباء والمتأدبين !

اللهم إن فينا أدباء جَروا من العربية على عِرق ، وأحرزوا صدْراً من بديع صِيَغها ، وتفتحت نفوسهم لمنازع بلاغتها ، واستظهروا الكثير من روائعها فيما نظم متقدّمو شعرائها وما أرسل المجلّون من كتابها . على أنّ أكثر هؤلاء ، والشعراء منهم على وجه خاصّ ، إذا اجتمع أحدهم لحديث العاطفة لم ينفُض ما يُحس هو ومايشعر ، وإنما تراه يترجم عما كان يجده السلَف الأقدمون من مئات السنين ، لأنه جعل كل همّه الى المحاكاة والتقليد ليخرُج شعرُه عربياً لاشكّ فيه ، وهؤلاء يتناقص عديدهم على الزمان حتى أشفَ فنّهم على الزوال

وهناك شبابٌ لم يَبلُغوا حظّاً مذكوراً من العربية ، ولعل من بلغ منهم حظّاً منها لم يُعنَ بها ولم يَكترِثْ لها ، وهؤلاء أقبلوا على أدب الغرب فجعلوا يحاكونه ويترسمون آثارَه ، فيَستحدِثون أخيلةً لم تَتراءَ لأحلامهم ، ويُسوّون صوراً لم تتمثّل لخواطرهم ، ويُريقون عواطفَ لم تَترقرق فى نفوسهم ، ويفصدون أحاسيس لم تجش قطُّ فى صدورهم . وتراهم يستكرهون هذه الأمشاج من المعانى على نظام ليس فيه من العربية إلا مفردات الألفاظ ، يُشدُّ بعضها الى بعض بمثل قيود الحديد برغم تنافُرها وتناكرها بحيث لو أُطلِقَت من إسارها لتطايرت الى الشرق والغرب ما يُلوى شيءٌ منها على شيء ! . فيخرج من هذا ومن هذا كلامٌ لايستوى للطبع ، ولايستريح اليه الذوق ، ولا يخف للتعلّق به الخيال ! وكيف له بشيء من هذا ولم ينتضح به طبع ، ولا رُهف له حس ، ولا تحركت به عاطفة ، ولا انبعث إليه من نفسه خيال ! فهو أدب مصنوع مكذوب على كل حال

بل إن هناك شباباً لم يحذِقوا شيئاً من لغات الغرب ، ولم يَظْهروا فيها على شيء من آداب القوم ، ولكن لقد تماظمتهم صَنعة أولئك فراحوا هم الآخرون يُشاكلونها ويحذُون حاهدين حذوَها ليُضافوا هم كذلك الى جمهرة (المجدّدين) ، وما التجديد فى شِرعة أكثر هؤلاء إلا الاتيان بالغريب الشامس فى نظمه وفى صُوره وأخيلته ومعانيه ! وإذا كان هذا اللّون من البيان مما يصح أن يَنتسب إلى أىّ أدب من الآداب ، فانه مما لا يَصلح لنا على أىّ حال !

وإن مما يضاعف الاساءةَ ويَزيد فى الألم أن يُقبِل الناشئون من طلبة المدارس على هذا اللغو فيتخذوا منه نماذج يحتذونها إذا تَمرّسوا للبيان ، ولن يُجشمهم التجويدُ والبراعةُ فيه جليلاً من جهد ولا مشقة ، لأن قَسْر أىّ معنى على أىّ لفظ ، وتسوية الخيال فى أىّة صُورة ، ليس مما يُعيى جهدَ المرء ولا مما يعتريه بالمشاقّ . ومن هنا يشيع أرخص الآداب ، أو أنه ينذر بالشيوع فى هذه البلاد ! ولو قد تُرك فى مذهبه هذا لطغَى أشدّ الطغيان ما تغنى فى صدّه جهودُ الأعلام من الأدباء . . وحينئذ يكتب على مصر أن تعيش من غير أدب أو تعيش بهذا الأدب المنكر الشائه الذى لا نَسبَ له مدة طويلة من الزمان !

الأدب القومى :

إذن لا مفرّ لنا من أن نلتمسَ أدبَنا القوميّ . ولا يكون هذا الأدبُ إلاّ عربىّ الشكل والصورة ، مصرىّ الجوهر والموضوع . وإذن فقد حق علينا أن نَبعث الأدبَ العربى

القديم ، وننشل دواوينه ، ونستظهر روائعه ، ونتروى منها بالقدر الذي يفسح في ملكاتنا ، ويقوّم ألسنتنا ، ويطبعنا على صحيح البيان . فاذا أرسلنا الأقلام في موضوع يتصل بالآداب ، بوجه خاص . أطلقنا القول في صيغة عربية لا شك فيها ، على ألا نطلب بها إلا الترجمة عما يختلج في نفوسنا ، ويتصل باحساسنا ، ونصور بها ما نجد مما يلهمه كلّ ما يحيط بنا ، وما يعترينا في مختلف أسبابنا من فكر ومن شعور ومن خيال

ولقد قدمت لك أننا قد نكون في حاجة شديدة جداً إلى مطالعة آداب الغرب وإطالة النظر فيها ، واستظهار الكثير من روائعها . ونقل ما يتهيأ نقله إلينا منها في لسان العرب . وهذا أمر لا شك فيه ولا غناء لنا عنه ، فان ذلك مما يهذب من ثقافتنا ، ويفسح في ملكاتنا ، ويرهف من حسنا ، ويهدينا إلى كثير من الأغراض التي تشتمها آداب الغرب في هذا العصر . والواقع أننا تهدينا من آداب الغرب إلى فنون لم يكن لنا بها عهد من قبل ، أو أنها مما عالجه سلفنا ولكن لم يكن حظهم منه جليلاً . ومن أظهر هذه الفنون القصص بالمعنى القائم ، ومذاهب النقد الحديث !

على أن شيئاً من ذلك الأدب الأجنبي لا يجدي علينا ، ولا يؤدي الغرض المقسوم بمطالعته والإصابة منه إلا إذا هذبناه وسوينا من خلقه ولونا من صورته حتى يتسق لطباعنا ويوائم مألوف عاداتنا ، ويستقيم لأذواقنا . كما ينبغي أن نجهد الجهد كله في تجليته في نظام من البلاغة العربية محكم التنضيد ، فلا نحس فيه شيئاً من نبو ولا نشوز . وبهذا نزيد في ثروة الأدب العربي ، ونرفع من شأنه درجات على درجات

وليس هذا الذي نرجوه لأدبنا بدعا في شريعة الآداب سواء في جديد الزمن أو في قديمه . فقد كان الأدباء وما برحوا إلى اليوم يعتمدون الفكرة البديعة ، والمعنى السامي ، والخيال الطريف المنسجم ، يصيبونه في لغى أجنبية ، فلا يزالون به يطامنون منه لأذواقهم ، ويروضونه لأساليب لغاهم ، حتى يجلوه فيها من غير عسر ولا استكراه . وإن تصرف المتقدمين من أقطاب البيان العربي فيما نقلوا من ألوان المعاني في اللغات الأجنبية لمن أصدق الدليل على صحة هذا الكلام . وهل رأيت إلى ابن المقفع لو لم يحدثك أنه ترجم كتابه (كليلة ودمنة) عن إحدى اللغات الهندية . أفكان يتسرح بك الشك في أنه عربي الأصل والمنجم ، عربي الحلية والنسب ؟ اللهم إن تسوية المترجم لما ينقل إلى لغته ، وطبعه على ما يواتي أحلام معشره ، ويسوغ في أذواقهم ، وينزع منازع بلاغاتهم ، ليس مما يقدح في كفايته ، بل إنه لما يرفع من قدره ويغلي من تصرفه . وكيف لا وهذا القرآن الحكيم لقد حدثنا عن عشرات من الأمم ، كانوا ينطقون في الأعجمية لغات متفرقة ، ونقل إلينا كثيراً من أحاديثهم ومقاولاتهم ومحاوراتهم ومجادلاتهم ، فما أداها إلا في أعلى العربية الخالصة ، بل في العربية البالغة حد الإعجاز ، وهل بعد بلاغة القرآن بلاغة ، وهل وراء بيان الكتاب العزيز بيان ؟ !

وصفوة القول أنه لا يعيب اللغة أو يغض من شأنها أن تصيب من بلاغات غيرها على أن تسيغه وتهضمه وتسويه حتى ينتظم في سلكها ، ويتصل بخلقها ، ويوسع في مادتها ، ويضاعف ثروتها ، لا أن يقسر عليها قسراً ويستكره لها استكراهاً ، فينكر صورتها ويشوه من خلقها على ما نرى من صنع كثير يعربدون في الأدب العربي باسم (التجديد) في هذه السنين !

كيف نعلم الأدب :

ولا شك في أن الينبوع الأول الذي يرده النشء ليتهلوا من فنون العربية ويتروّوا آدابها ويستثيروا بلاغاتها ، وينبعثوا لترسمها إذا هم أقبلوا على البيان ، هو معاهد التعليم على وجه عام ؛ فاذا هي جدت في سهمها وأخذت من بين يديها من التلاميذ بما ينبغي أن يؤخذوا به من أساليب التعليم والتمرين ، كان لنا في هذا الباب كل ما نريد

وإذا كان الأدب كسائر الفنون إنما يبرع المرء فيه بالاستعداد الفطري مع التكلف به وشدة الاقبال عليه وطول التمرين فيه بأكثر مما يحرز بالتعليم والتلقين ، فان مما لا يعتريه الريب أن للأستاذ ، وخاصة في ابتداء العهد بالطلب ، أثراً بعيداً في تعليم أصول الفن وبيان حدوده ، وإعلام طريقه بين يدي الطالب ، وتهذيبه بطول التعهد ، وتوسيع ملكاته بألوان الملاحظة ، وإسلاس الاجادة له بفنون التدريب والتمرين . ولعمري لو قد أخذ الأساتيذ تلاميذهم بهذا الأسلوب في تعليم الأدب العربي لأحبوه وكلفوا به وانبعثوا من تلقاء أنفسهم لمراجعته في أوقات فراغهم ، وإمتاع

النفس بتسريح النظر فى بدائعه . وكذلك تُصبح مطالعةُ الأدب رياضةً يُطلب بها الترفيه والاستجمام إذا لحق الكد ، وأجهدت المطاولةُ فى طلب العلم . وسرعان ما تستقيم الطباع ، وتُدرك الملكات ، ويجرى صادق البيان فى الأعراق مجرى الدماء

أما إذا حُصِب التلاميذ بالقواعد جافة لا يترقرق فيها ماء البيان صافياً ، وقنع الأساتذة بأن يلقوا اليهم قطعاً من الشعر أو النثر ليحفظوها دون أن يوصل بين نفوسهم وبين ما تحوى من ناصع البلاغة ، فقد استثقلوا الدرس وكرهوه وبرموا به ، وتجرعوه تجرعاً إشفاقاً من العقوبة أو من التخلف إذا كان الامتحان ! وإنى لأكره أن أقول إن إقبال كثرة التلاميذ على هذا الأدب الرخيص الذى يخرج فى العامية حيناً ، وفى تلك العربية المتكسرة الشائهة أحياناً ، وتهافتهم عليه ، وافتتانهم به ، وأخذ الأقلام بمحاكاته وترسمه ، إنما هو أثر من آثار ذلك البرم والاستثقال لدروس العربية وآدابها فى معاهدنا المصرية !

والآن فالرأى فى قيام أدبنا القومى وفى لغة الكتاب العزيز إلى أساتيذ المدارس ، وإلى وزارة المعارف ، فلننظر ماهم فاعلون !

عثرة ورجاء :

بقيت هنالك مسألةٌ لا يجمل بنا أن نختم هذا المقال دون أن نعرض لها بشىء من البيان : يقولون إن اللغة العربية فقيرة ، أو إنها أصبحت فقيرة بحيث لا تستطيع أن تؤدىَ بعض مطالب الحياة فى هذا العصر إلاَّ فى شدة عُسر وحرج ، ولا تستطيع أن تؤدى بعضها أبداً . وهذا كلامٌ ، على أنه لا يخلو من الحق ، فانه لا يخلو من الاسراف الى حدٍّ بعيد . إذ الواقع أن اللغة العربية غنية سخية بالكثير مما يواتى مطالب العاطفة ، ويصور نوازعَ الشعور أحسن تصوير . فلقد بلغ المتقدمون من شعراء العربية فى هذا الباب ما لا أحسب أن قد بَرَعهم فيه كثيرٌ من أصحاب البيان فى اللغات الأخرى . ولو قد نَفضَ متكلفو الأدب دواوينَ أولئك الشعراء وفَرُّوا ما أجنَّت من قصائد ومقطوعات لخرَج لهم من ذلك ما يملأهم جليلاً من تصوير مختلف العواطف والتعبير عن خفيّات الحس والشعور . وهذا ، لو علمت ، أجلُّ مطالب الأدب فى جميع اللغات . وحبذا لو أكثر الأساتيذُ من عَرض هذه الأشعار على تلاميذهم ، وتقدموا اليهم الفينة بعد الفينة بالحديث فى الموضوعات الانشائية ، عن الحس والعاطفة فى مختلف الأسباب ، واستدركوا عليهم ما عسى أن يكون قد أخطأهم فى ذلك من ناصع البيان

على أن هناك عقبة أخرى تحتاج إلى جهد فى التذليل ، وهى أنه فى ركود لغة العرب بانقباض حضارتهم ، عُقد ما لا يكاد يحصره العدد من الاصطلاحات العلمية والفنية ، واستُحدثت أشياءُ كثيرة جداً فى جميع وسائل الحياة ، سواء منها الضروريات والكماليات . ولا شك فى أن إصابة هذه الأشياء فى لغاتها إفساد للعربية واستهلاك لها . كما أنه لامعنى للالتفات عنها إلاّ الاعراض عن هذه الحضارة العريضة ، بل الاغراض عن أكثر ما نجده وما نعالجه فى هذه الحياة . وهذه العقبة تقوم الآن على تذليلها جهود أفاضل الأدباء من جهة ، والمجمع الملكى للغة العربية من جهة أخرى ، بالغوص عما يدل على ذلك فى مجفو العربية سواء بأصل الوضع أو بالطرق الفنية الأخرى

ولقد يكون من المفيد فى هذا المقام أن ننبه حضرات رجال هذا المجمع أن الاكتفاء باثبات ما يتسق لهم من المصطلحات والألفاظ فى معجم جامع أو نشرها فى كراسات دورية ليس مما يجدى كثيراً فى اصابة الغرض المقسوم ، فقد ثبت ، بحكم التجربة ، أن أبلغ الوسائل فى شيوع الألفاظ والصيغ المستحدثة أو المبعوثة من جاثم اللغة ، وكثرة دورانها على الألسن والأقلام ، هى استعمال كبار الشعراء والكتاب لها ، وترديدها فيما تجليه الصحف السائرة لهم من الآثار ، فحبذا لو سعى إلى هذا أولياء اللغة ، وخاصة فيما يتصل ، مما يستظهرون ، بالفنون والآداب

نسأل الله تعالى أن يهدى الجميع سواء السبيل

عبد العزيز البشرى

الاسبرانتو Esperanto

كل القواعد — ومفردات تبلغ ٢٠٠٠ كلمة نظير ٢٠ مليما طوابع بريد مصرية أو قسيمة بريد للمجاوبة — أطلب النشرة نمرة ٣٠

مدرسة الأسبرانتو بالمراسلة ص . ب ٣٦٣ بورسعيد